العمائر الدينية بالحرم المكي الشريف

(المساجد والتكايا والمدارس والأربطة)

إعداد

أ.د/ مجدى عبد الجواد علوان عثمان

أستاذ الآثار والعمارة الإسلامية
وكيل كلية الآداب – جامعة أسيوط

حاز الحرم المكي الشريف -شَرَّفَهُ الله وأعلاه -على بؤرة الاهتمام المستمر بعمارة مكة المكرمة وعمرانها؛ وذلك نظرًا لمكانته السامقة في قلوب المسلمين ، وقد شهد المسجد الحرام إضافات وتجديدات معمارية متعاقبة تمت زمن العباسيين، كان لها أثر كبير في توسيع رقعة المدينة، ومن تلك التوسعات تلك التي قام بها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة 137هـ/754م، والخليفة المهدي سنة 160هـ/776م، والخليفة المعتضد سنة 281هـ/894م، والخليفة المقتدر سنة 306هـ/918م، ومن مميزات تلك التوسعات أن شهدت المدينة لأول مرة ارتفاع المباني لأكثر من طابق في المنطقة المحيطة بالحرم الشريف (شكل 1 ، 2).

تلى ذلك عمارة سلاطين الدولة المملوكية في مصر والتي بدأها الأمير بيسق الظاهري أمير الحاج المصري في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة 803هـ/1400م، والذي تخلف بعد الحج لعمارة المسجد الحرام بعد نشوب حريق في بعض أجزائه، فأحكم أساساته تحت الأرض، وأصلح أعمدته وسقوفه، تلاها عمارة أخرى أجراها السلطان الأشرف قايتباي، اشتملت على بناء مدرسة، ورباط للفقراء، وكتاب للأيتام، وربوع ودور، ومئذنة بنيت على طراز القلة طراز المآذن المملوكية في مصر والشام.

وبعد ما آلت مقاليد الأمور السياسية للدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي تمت التوسعة العثمانية الشاملة للبيت الحرام في عهد السلطان سليمان القانوني بن سليم الأول(927-974هـ/ 1520-1566م)، وهو أول من عَمَّر المسجد الحرام من سلاطين آل عثمان في عمارة واسعة، اشتملت على تجديد سطح الكعبة المشرفة، وإصلاح ميزابها، وتجديد فرش المطاف، وإصلاح أبواب المسجد الحرام، وفرش أرضيته بالجص، وعمل منبر رخام مرمر لا مثيل له، وعمارة المقام الحنفي، وبناء مدرسة كبيرة، ورباط ، وبناء مئذنتين سامقتين على طراز المآذن العثمانية مسلوبة القمة، وأصبح بذلك عدد مآذن المسجد الحرام سبع مآذن، جُعِلَت قممها على الطراز العثماني(لوحة 1، 4، 5، 7).

تلى ذلك عمارة أخرى قام بها السلطان سليم الثانيابنالسلطانسليمانالقانوني (974-982هـ /1566-1574م)، أكملها من بعده خلفه السلطان مراد الثالث، واستغرقت عدة سنوات (980-1040هـ/1572-1630م)، تضمنت إصلاحات عديدة ودورية للمسجد الحرام، شملت أبوابه ومدارسه ومرافقه الخدمية، فضلًا عن الكعبة المشرفة، واستمرت العمارة فيما بعد تُجْرَى طوال العصر العثماني (لوحة 3).

وفي عصر الدولتين السعودية الأولى والثانية أجريت توسعاتللحرمالمكيالشريف؛ففي سنة 1256-1343هـ/1840-1924متتمهيدكثيرمنالشوارعالرئيسية،فضلًاعنتوسيعالطرقالمؤديةإلى الحرم، كما فُرشت أرضية المَطَاف المحيطة بالكعبة بالرخام، وعملت حوله أعمدة نحاسية ثبتت بها مصابيح للإنارة، عبارة عن قناديل زجاجية تُملأ بالزيت والفتيل، كما بُنيت في كل ركن من أركان الكعبة غرفة صغيرة، خصصت للأئمة على المذاهب الفقهية الأربعة، كل غرفة لإمام مذهب يؤم الحجاج، تعلوهاغرفةأخرىخصصتللمؤذنين والموقتين (لوحة 4، 5).

أبواب المسجد الحرام

:كانللمسجدالحرامفيالعصرالعباسيتسعةعشربابًا،زيدتبعددلكفينهايةالدولةالسعوديةالثانيةإلىستةوعشرينبابًا،وجميعهاأبوابنافذةتفتحعلىالشوارعالمحيطةبالحرم،ولهاحجورعميقة،وعليهانصوصالإنشاء، والعباراتالدعائية،والآياتالقرآنيةالخاصةبها،منهاخمسةأبوابفيالجانبالشرقي،وهي:

(بابالسلام،وبابمدرسةقايتباي،وبابالنبيأوبابالجنائزأوبابالحريريين،وبابالعباس،وبابعليأوبابنبيهاشمأو بابالبطحاء)،أماأبوابالجهةالجنوبيةفستة،وهي:

(بابيازان،وبابالبغلة،وبابالصفا،وبابأجيادالصغير،وبابالمجاهدية،ويقاللهبابالرحمة،وبابمدرسةالشري فعجلان،وبابأمهانئ)،بينماأبوابالجهةالغربيةسبعة،وهي:

(بابالحزورة،ويعرفالآنبابالوداع،وبابإبراهيم،وبابالخوزي،وبابمدرسةالشريفغالب،وبابمدرسةالداو

ودية،وبابالعمرة)،فيحينبلغعددأبوابالجهةالشماليةثمانيةأبواب،وهي: (بابالسدة،وبابمدرسةالزمامية،وبابالباسطية،وبابالقطبي،وبابالزيادة،وبابالحكمة،وبابالسليمانية،وبابال دريبة).

المـــــــآذن:

كان بالمسجد الحرام سبع مآذن، خمس منها ترجع عمارتها لعصر الدولة العباسية، وواحدة من عمل السلطان قايتباي من العصر المملوكي، والسابعة من عمارة السلطان سليمان القانوني في العصر العثماني، وحدث أن أصاب الخلل المآذن الخمس التي ترجع للعصر العباسي لخلل جدرها، فسقط البعض منها، وجددت عمارتها، حيث سقطت مئذنة باب العمرة التي بناها الخليفة أبو جعفر المنصور والتي سقطت سنة 551هـ/1156م، وجدد عمارتها وزير صاحب الموصل محمد الجواد الأصفهاني، ثم جددها مرة أخرى السلطان سليمان القانوني في عمارته الشاملة للمسجد الحرام، وبنيت بالآجر، ثم جددها مرة أخرى الشريف سرور، وجعلها من طابقين سنة 1201هـ/1786م، أما المئذنة الثانية فهي مئذنة باب السلام، وهي في الأصل من بناء الخليفة العباسي المهدي، هدمت سنة 816 هـ/1413م، وجدد عمارتها السلطان المملوكي المؤيد شيخ المحمودي، ثم جددت عمارتها مرة أخرى سنة983هـ/1575م في عمارة السلطان العثماني مراد الثالث.

أما المئذنة الثالثة فهي مئذنة باب علي، وسقطت وجددت في عمارة السلطان سليمان القانوني سنة 970هـ/1562م، وبنيت بالحجر، وكانت من طابق واحد فعملت من طابقين، والمئذنة الرابعة هي مئذنة باب الوداع، وجددها السلطان المملوكي شعبان بن حسين سنة 771هـ/1369م على طراز المآذن المصرية بطراز القلة، بينما المئذنة الخامسة كانت بجوار باب الزيادة، وعَمَّرها السلطان المملوكي الأشرف برسباي سنة 838هـ/1434م، وسجل تاريخ هذه العمارة في قاعدتها الحجرية، أما مئذنتا قايتباي وسليمان القانوني فبقيتا كما هما .

العمائر بجوار المسجد الحرام:

لمركزية الحرم المكي الشريف وأهميته فيالعصرالعثمانيشُيِّدت معظم المباني حوله ، وكانت عبارة عن مجموعة من المباني الحكومية متنوعة الوظائف والأغراض، وتمثلت المنشآت في: المدارس التي أدت وظيفة التدريس، والتكايا التي أدت وظائف خدمية اجتماعية لإيواء المتصوفة والدراويش الذين يكثرون في موسم الحج ، والأربطةالمخصصة للرعاية الاجتماعية، وكذلك عمارات الوقف.

المدارس:

كان بمكة المكرمة عدة مدارس تؤدي وظيفة تدريس العلوم الدينية، وبعض العلوم التطبيقية الأخرى كالرياضيات والحساب وغير ذلك، منها مدرسة كبيرة ، كانت في الأصل من عمارة السلطان المملوكي الأشرف قايتباي، اكتملت عمارتها سنة 884هـ /1489م، عند باب السلام ضمن عمارة أجراها للمسجد الحرام، أشرف على عمارتها الأمير سنقر الجمالي ، وأوقف السلطان قايتباي عليها أوقافًا متنوعة في مصر للصرف من ريعها على عمارتها

وأرباب وظائفها ، واستمرت تؤدي وظيفتها حتى عصر الدولة السعودية الثانية 1240-1309هـ /1824-1891م ، ولكن بمرور الوقت انحسر الوقف، وضعفت موارده؛ فأهملت المدرسة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وتحولت من دار علم تدرس فيها العلوم المختلفة إلى دار ضيافة كان يسكنها أمير الحاج المصري أثناء تواجده في موسم الحج، ثم سكنها بعض أشراف مكة، وكان يوضع بها المحملان الشريفان المصري والشامي.

كما وجدت المدرسة السليمانية والتي عرفت فيما بعد بالمدرسة الرشيدية، والتي بناها السلطان عبد المجيد سنة 1257هـ /1841م، عند باب الدُّرَيبَة في الركن الشمالي من الحرم المكي الشريف ، وألحق بها مكتبة (كتبخانة) ، عرفت بالسليمانية لأنها بنيت موضع أربع مدارس بناها السلطان سليمان القانوني، ثم نقلت إلى مكان سوق المعلاة في بناية المدرسة السعودية التي هدمت في توسعة الشوارع المحيطة بالحرم الشريف.

وكان في مكة أيضًا مدرستان أخريتان بالقرب من الحرم المكي الشريف، الأولى: هي المدرسة الصولتية، من بناء الشيخ محمد رحمة الله الهندي، وساهمت في تكاليف عمارتها سيدة هندية ثرية تسمى (صولت النساء)، فنسبت إليها وسميت بالصولتي بعد تمام العمارة سنة 1290هـ/1873م ،دُرِّست فيهاعلوم القرآن الكريم، وعلوم اللغة العربية، والرياضيات والحساب، ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند، ونظرًا لعدم جريان وقف مخصص عليها - وغياب موارد الصرف على العمارة وأرباب الوظائف -فقد انحدر مستواها، وتعطلت وظائفها، وتخرج فيها كثير من علماء مكة ومشايخها، منهم آل مرداد، والمفتي، والعجيمي، والغمري، والطيب، والدهان، والدهلوي، والكتبي، ومن المشايخ حسن مشاط، وعيسى رواص، ويحيى أمان.

أما المدرسة الثانية فهي مدرسة الشيخ يوسف محمد الخياط، أحد كبار علماء مكة ومحدثيها، وهي أفضل من المدرسة الصولتية، وتدرس فيها العلوم السابقة لكن بتوسع، ويعتني بها أمير مكة اعتناءً شديدًا.

وكان عدد العاملين بهاتين المدرستين: الصولية والخياط من المدرسين نحو الثلاثين، وتصرف الحكومة على مرتباتهم، وكان يَدْرِس في هذه المدارس طلاب كثيرون، أغلبهم من الجاوة (أندونيسيا).

كما بنى الشيخ عبد الحق قاري أحد الأساتذة بالمدرسة الصولتية مدرسة أخرى عرفت بالمدرسة الفخرية سنة1296هـ/1878م بجوار باب إبراهيم.

وبنيت مدرسة أخرى، أسسها الشيخ عبد الكريم الطرابلسي بقاعة الشفاء، وهي أول مدرسة عربية عنيت بتدريس التلاميذ جلوسًا على مقاعد الدراسة في مكة أمام السبورة، وكان معظم معلميها من السوريين.

إلى جانب تلك المدارس وفي سنة 1328هـ/1910م، افتتحت الحكومة العثمانية مدرسة بمكة المكرمة بحضور الوالي، والشريف، وجمهور من العلماء والأعيان، عرفت بمدرسة برهان الاتحاد.

وأدت هذه المدارس مجتمعة وظيفة تدريس علوم القرآن، والفقه، والحديث، واللغة العربية، وعلومها، إلى جانب العلوم الحديثة كالرياضيات، والهندسة، والحساب، وغيرها، بغرض خدمة الحرم المكي الشريف.

التكايا:

إلى جانب المدارس بنيت في مكة ثلاث منشآت خيرية خدمية، تخدم المتصوفة والحجاج والمغتربين، وهي التكايا، و كان أكبرها وأكثرها موردًا: التكية المصرية، وكانت تقع تجاه باب العجلة، أو باب بني تميم بالجهة الجنوبية، والمعروف بباب التكية (شكل4)، وهي من بناء والي مصر محمد علي باشا سنة 1238هـ/1822م، بناها في موضع دار السعادة التي كانت محل حكومة بني زيد من الأشراف سنة 1229هـ/1814م، وزودت هذه التكية بمرافق خدمية متنوعة، إلى جانب أماكن الإقامة، وهي: حواصل أو مخازن، وطاحونة، ومخبز، ودار المرق ، وكانت تطبخ بها الشوربة (المرق) يوميًا في الصباح، وتوزّع على المقيمين فيها والمعوزين من الفقراء، مع ما هو مرتب لهم من الخبز، وقدر عددهم بنحو خمسمائة شخص، ويزيد هذا العدد نحو ثلاثة أضعاف في موسم الحج، ونصت على ذلك حجة الوقف المخصصة ضمن أوقاف الحرمين الشريفين ، وظلت هذه التكية قائمة حتى دخلت حديثًا في توسعة شارع الملك سعود.

الأربطة:

ذكرت المصادر التاريخية أن السلطانالأشرف قايتبايضمن عمارته الكبيرة للمسجد الحرام قد عَمَّرَبجوارمدرستهرباطًاوقفهعلىالفقراءوالطلبةالمغتربين.

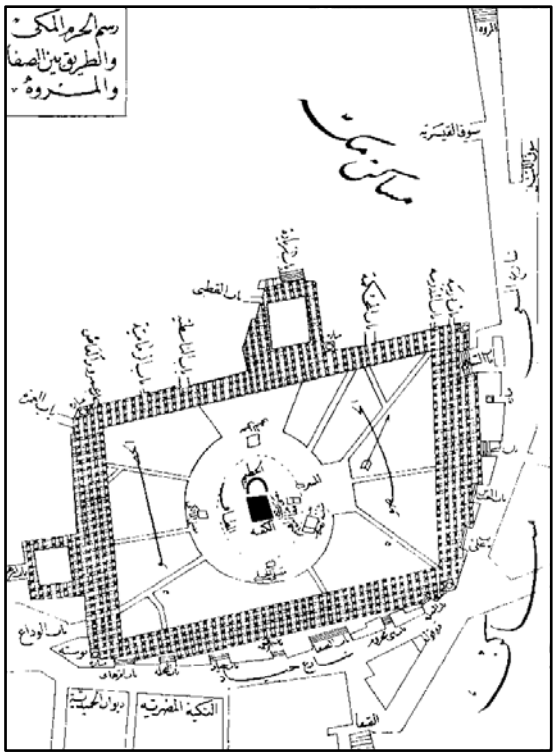

(شكل 1) رسم يوضح موقع الحرم المكي وما يحيط به من شوارع ومنشآت سنة 1297هـ / 1880م

عن : البتنوني – الرحلة الحجازية

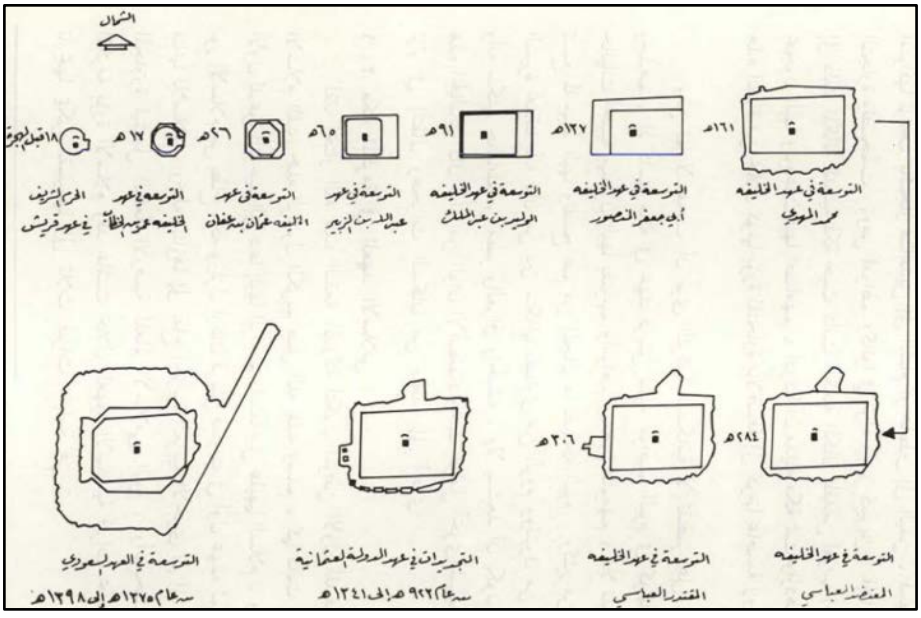

(شكل 2) كروكي يوضح تطور وتاريخ توسعات الحرم المكي عبر العصور حتى العصر السعودي

عن محمود السرياني– مكة المكرمة دراسة في تطور النمو الحضري

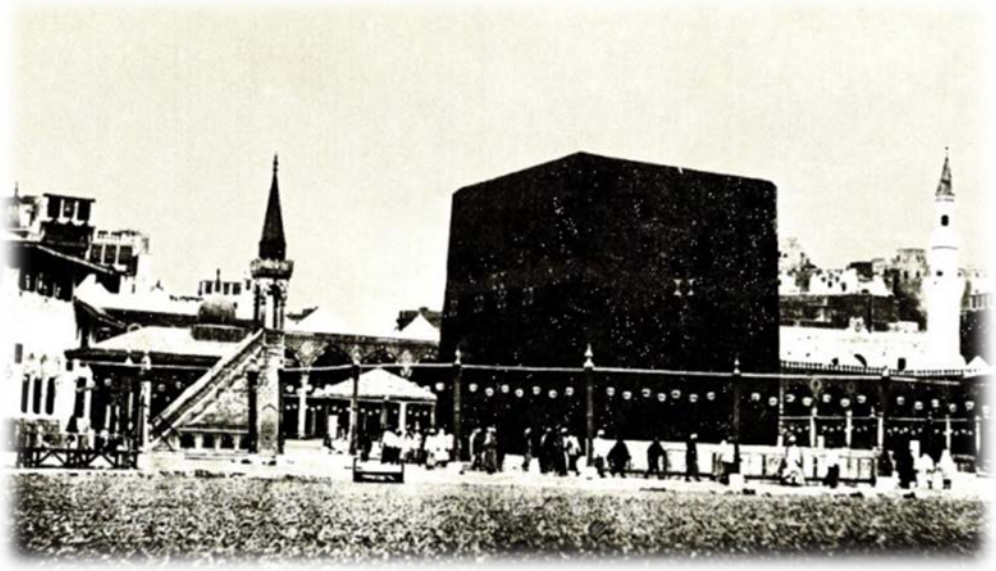

(لوحة 1) منبر الرخام المرمر من عمل السلطان سليمان القانوني

عن : حسين باسلامة– تاريخ عمارة المسجد الحرام

(لوحة 2) باب السلام على عمارته الأخيرة التي أجراها السلطان سليمان القانوني

عن : حسينباسلامة – تاريخعمارةالمسجدالحرام

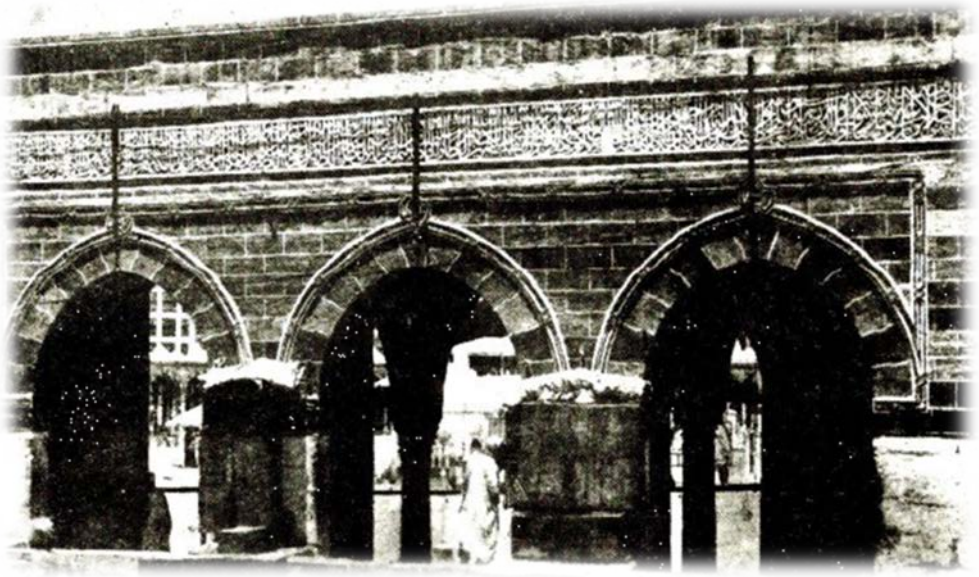

(لوحة 3) باب علي في عمارته الأخيرة سنة 984هـ/1576م

عن : حسينباسلامة – تاريخعمارةالمسجدالحرام

(لوحة 4) منظر عام للمسجد الحرام و الساعة الضخمة التي وضعها الملك عبد العزيز آل سعود للميقات

عن : حسينباسلامة – تاريخعمارةالمسجدالحرام

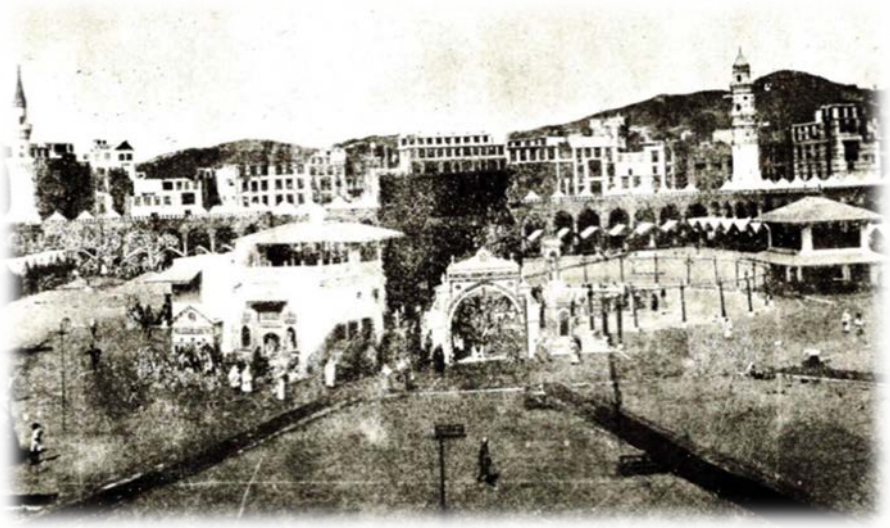

(لوحة 5) المظلات لوقاية المصلين والسبيل تجاه بئر زمزم من عمل الملك عبد العزيز آل سعود

عن : حسينباسلامة – تاريخعمارةالمسجدالحرام

(لوحة 6) شارع المسعى بعد أن رصفه الملك عبد العزيز آل سعود

عن : حسينباسلامة – تاريخعمارةالمسجدالحرام

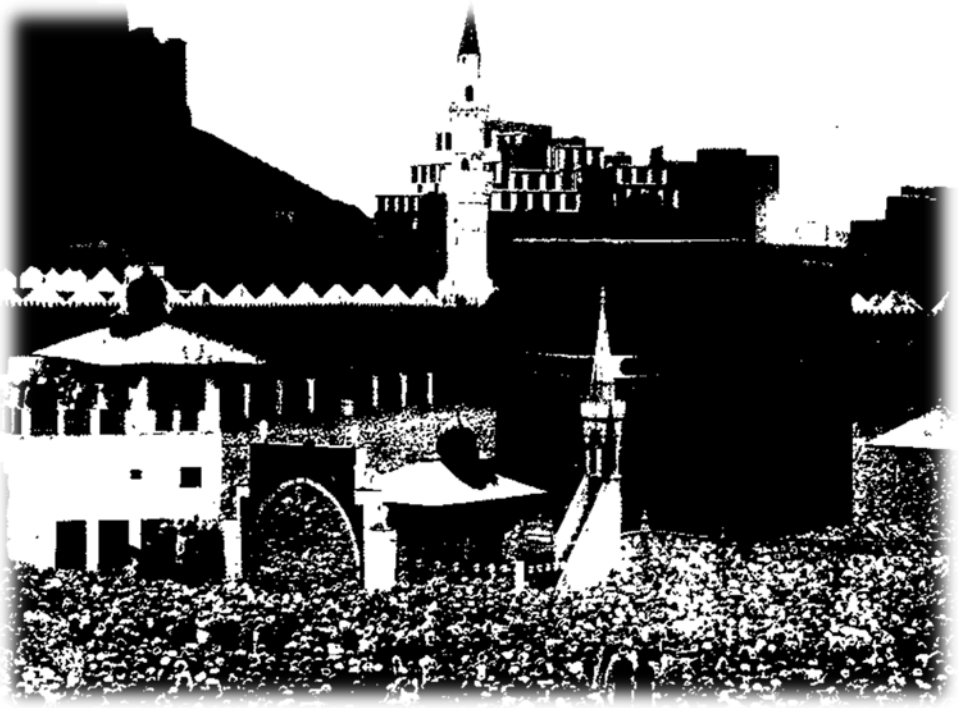

(لوحة 7) الكعبة المشرفة و الحرم المكي والمنبر الرخامي والمآذن العثمانية سنة 1328هـ / 1910م

عن : البتنوني – الرحلة الحجازية